

الشعر^(١)

(٢)

﴿ الوجه اللفظي والوجه المعنوي ﴾

ان حقيقة الشعر لا تتوقف على الوجه اللفظي الذي مراده الوزن .
فان للوجه المعنوي فعلاً كبيراً في ماهية الشعر لا بل هو الروح ، وقد قال
ارسطو وهو اول من كتب في فلسفة الشعر : ان حقيقة الاشياء هي
التي تميز القول الشعري عن ماهية غيره وتجعل الشاعر شاعراً وليس
هيئة الشعر

وانت اذا قرأت تليماك او تصفحت الشهداء (Les Martyrs) يخيل
اليك تارة انك تسرح في رياض زاهية زاهرة ، وتمرح في مروج باهية
باهرة ، وطوراً تنظر قصوراً شاهقة ، وتشعر كأنك على ظهر سفنٍ
تنساب بك في الناماء ، واحياناً تخلق فوق ذيل الهواء ، وتشاهد السحب
الزهراء مبعثرة في بساط الزرقاء ، وغير ذلك بحيث تشور في باطنك لواعج
الاشجان في مآزق الكروب وامام اوصاف الحزن . او تجيش بك

(١) رأينا في مقالنا السابق ان الاقويل الشعرية هي الوزن فاللحن فالاقويل
المخيلة اي غير الموزونة . ويلاحظ ان هذه الثلاثة لا تجتمع بحكم الضرورة في اشعار
العرب التي ركنها الوزن والمحاكاة المخيلة . (راجع تلخيص كتاب ارسطاطاليس
في الشعر لابن رشد) ثم قلنا ان اللحن داخل تحت حكم الوزن وهو غير ذلك
في اشعار العرب

(٦٧)

بواعث الاعجاب والاستحسان تجاه مناظر الكون ، بيد انك في كل ذلك
تكون منيظاً طرفك بصفحات الكتاب

وكأني بك تقول واذا كان ذلك كذلك فما بقي وراء الشعور وماذا يفيد
اذن الوجه المعنوي في الشعر؟ قلت ان ارباب هذه الصناعة أجمعوا على
ان هذه المحاكاة المخيلة لا تعد شعراً باي وجه من الوجوه وليس في هذا
القول اثنان . فالفريض في الاقويل الشعرية مزية كبرى . فهو أحق
بان تفرغ فيه المعاني الشعرية السامية والعواطف الرقيقة . واذا تبعت
ذلك استقراء تدركه من تلقاء نفسك ، فانك اذا اطلقت للقلم العنان في
مجال وصف ، وارسلت فيه الكلام ارسالاً يأتي عليك وقت تتقد فيه
العواطف اتقاداً وتمتلي النفس حماساً ، وتشر بضيق نطاق العبارة المرسله
قهجهم عفواً على العبارة المتوازنة المسجعة وهي ضرب من الشعر

ثم ان الفريض من شأنه أن يحرك اوتار النفس ويث فيها ثورة
وانفعالاً بمعنى انه يولد فيها العواطف ونغمي فيها روح الجمام والنشاط
ويرغبها ويطربها ولقد صدق من قال : ان الشعر أشبه بزمام مجمل يمتلك
من النفس ويديرها كيفما شاء

ومما لا ريب فيه ان للفريض نصيباً وافراً في اللذة التي تخالج اقدتنا
والسهولة التي تخدرا عصابنا عند تلاوة الشعر او سماعه . فلولا لتعذر على
أي كان أن يأتي على آخر قصيدة مؤلفة من مئة او من مئتي بيت
فاكثر نظراً لذبول زهرة العواطف واتحاد انفعالات النفس الحماسية التي
يستحيل أن تظل مضطربة . كذلك ان المعاني اذا طالت متابعة لا بد

أن تهى وتخللها ركاكة ولكن القريض يوجد اللذة مستمرة رغماً عن طول القصيدة وما ينتج من الملل والسأم

غير ذلك فالقريض كسمير للشاعر أو هو كعروس الشعر . يرزقه الهاماً ويفتح عليه مغلق الكلام ويفجر له عيون المعاني . ولقد يقر بذلك كل من اعتاد ركوب بحر الشعر . وعلى ما يحكى ان المتنبي كان دأبه اذا عمد الى الصناعة أن يتغنى ويصنع ، حتى اذا ما توقف رجع الى الانشاد من اول القصيدة الى حيثما توقف ، وبذلك يأتي عليها بكرة . وعلى هذا المذهب حذاق الشعراء لما فيه من قرب المدرك

هذا هو فعل الوزن في الأقاويل الشعرية

ثم ان هناك فرقاً آخر يبعد القولين - الشعر والنثر - بعد الخاقين . فان للشعر خواصاً وأساليب انفرد بها ولا تصاح ان تكون لغيره ، وهي كثيرة يضيق نطاق هذه العجالة عن حصرها

فمن ذلك ان الشاعر كثيراً ما يكتب بالحذف والزيادة ويشير الى

معان بطريق التلميح والايجاز

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لكل غروب شمس
فها تان الصورتان - طلوع الشمس وغروبها - تؤديان حسناً
المعنى الذي أشارت اليه الخنساء . فطلوع الشمس كناية عن جمال أخيها
ويحتمل ان الغروب يذكرها انزواءه . وقيل ان المشهد الاول كناية عن
الغارة والغروب عن الضيفان

وهذا ومثاله يدخل في صناعة الشعر . ثم ان الشاعر يكثر من تقديم

القيود على المقيدات والصفات على الموصوفات واعادة الضمير الى ما يريد تجاهله او التعريض به . ويسهل على الشاعر ايضاً ان يفصم عرى الروابط اللغوية والوصل والمتعلقات بقدر ما تسوغ له الجوازات الشعرية وليس في النثر شيء من ذلك فانه اذا نُحِيَ فيه منحى الشعر ساق ذلك الى الالتباس والاستغراق

ومعلوم ان المعنى في الشعر أقرب الى الفهم مما في النثر . نخذ مثلاً مرثية المتنبي في أم سيف الدولة واقراً الصدر من كل بيت فتدرك عفواً المعنى الذي تضمنه العجز

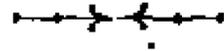
ناهيك ان الشعر كلفٌ بالتشايه الرائعة والمجازات البديعة والكنايات المستملحة والمبالغات الظريفة ، فاذا نما فيها وانمي أطرب الالباب وبلغ مبلغاً عظيماً من الالذاذ والاعجاب بخلاف النثر فانه اذا تعددت فيه الصور الخيلة والتشبيهات والمجازات ظهرت به الكلفة واستولى على القارئ سأم او مجة الذوق كارهاً . ولئلا يقال اننا نرسل الكلام اعتباراً ، دونك قطعة من مقامتي الغربية والغربية للامام شهاب الدين الخفاجي :

« لما هزتني أريحية الشباب ، الى اقتعاد سنام الارض على غارب الاغتراب ، وقد أجدبت الارض من كل ماجد ، يجتني جنى المجد ويجني له ثمار المحامد ، وتمطلت من كريم تلتف عليه المحافل ، وتسير في ظلال أعلامه الجحافل . . . اقسمت بيت سالت يطحائه أعناق المطايا ، وتمل ركبانه بكأس السرى في الغدايا والعشايا . » آه . . .

في ذلك كفاية ليشعر ذو الذوق السليم يده سامة ، مع ان لهذا

الكلام منزلة عليا من البلاغة، فالمعاني سامية، والانشاء من النمط العالي،
والتخييل في منتهى الكمال انما ليس هذا اللباس كساءه فكان أولى
بامثال هذه الاقوال ان تفرغ في مهب القريض وتنسج على منواله

علمى المصرى



سبحان في رياض الشعر

﴿ الى سابا باشا ﴾

كتب سعادة اسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية السابق الى سعادة
السر يوسف سابا باشا ناظر المالية يعزّيه على فقد نجله فريد وقد قصف الموت غصنه
الرطب في خلال الشهر الفائت :

سأبا اتق الله وخلّ الأسي	لجاهل يُعذرُ في جهله
لا تكترث بالرزء وانهض به	فالرأي كلُّ الرأي في حمله
مثلك من يلجأ إن راعه	يومٌ بمكروه الى عقله
قضى «فريد» وهو غض الصبي	وخلف الحسرة في أهله
وقابلته في الجنان العلى	ملائكته لله في شكله
واهاً له من غصن ما نما	حتى ذوى واجتث من أصله
سابا أبك لكن كالحكيم الذي	يخاف أن يُطعن في نبله
واصبر فكم من جزع آكل	من صحة المرء ومن فضله
فالبيت لا تنسبه أحزانة	مقامة ان ضمّ في شبله

اسماعيل صبرى